شعر الأطفال وانعكاسه على مخيلتهم

فاضل الكعبي*

مثلما للقصة أهميتها البالغة، ومكانتها الكبيرة والمُتميِّزة، وموقعها المتقدم والمهم، الذي يتَّخذ موقع الصدارة في بنية أدب الأطفال، كما أشرنا إلى ذلك وبيَّناه هنا، وأكَّدنا في الوقت ذاته أن للقصة السبقَ الأوَّلَ في ميول الأطفال القرائية؛ كذلك الحال بالنسبة إلى الشعر، وأعني به هنا (شعر الأطفال)، فلهذا الشعر المكانة المهمة، والموقع البارز في بنية أدب الأطفال، بوصفه من بين الأجناس الأدبية والأشكال الفنية الأساسية لأدب الأطفال، ويشكِّل الركن الثاني والأساسي الذي يقوم عليه بناء أدب الأطفال، كما أنَّ للشعر أهميته والحاجة إليه لدى جمهور الأطفال، ومثلما يأتي هذا الشعر بالمرتبة الثانية بعد القصة في بنية أدب الأطفال، فإنَّ الميل إليه، والطلب عليه من قِبل الأطفال يأتي بالمرتبة الثانية أيضـًا.

ولكي تكون هناك موازنة عادلة بين الشعر والقصة، وتقريب مفهوم الشعر وفنيَّته وشكله من ذائقة المتلقي الطفل، فقد انطلق الكثير من الشعراء إلى صياغة قصائدهم صياغة قصصية بقالب شعري، وهذا ما كنَّا نطالعه في العديد من النصوص القصصية والمنظومات الشعرية في أدبنا الطِّفْليّ المنظوم في العصر الحديث، إلا أن هذا الأمر بعد ذلك أخذ مَنحًى آخر من التعبير والتشكيل، ينطلق بالمعنى والشكل والأسلوب انطلاقة أخرى أكثر فاعلية مما كانت عليه الكتابة الأدبية في صياغة القصة صياغة شعرية مُؤثِّرة، يمكن أن تأتي بنتائج أكثر فاعلية وتأثيرًا عند الطفل المتلقي.

وعلى هذا الأساس سعى الفكر الخلاق المهموم بقضية النوع الأدبي المَعنيّ بمخاطبة الطفل، ومؤثراته الأكثر فاعلية، إلى إيجاد أفضل السبل للوصول إلى مخيلة الطفل وإلى ذائقته

* شاعر وأديب وناقد وباحث متخصص في أدب وثقافة الأطفال – العراق.

واهتماماته في التلقي، وحين وجدوا طغيان القصة على الشعر في طرائق التلقي ومستوياته، عند هذا الطفل، سَعَوْا إلى خلق المُعادِل الموضوعي الذي يربط الشعر بالقصة، والقصة بالشعر في منظور واحد ومشترك يأتي بهذا الجنس من الشعر ليغذي ذاك الجنس من القصة؛ ليعطي نتاج الاثنين في القراءة وفي التأثير لدلالة التلقِّي وعمقها في وجدان الطفل وذهنيته، فكان من ذلك أن أوجد صناعة وصياغة (الحكاية الشعرية)، التي هي قصيدة تخرج بلباس القصة، وقصة تتزيَّن بزِيِّ الشعر؛ لتخرج إلى القارئ الصغير بشكلٍ ساحرٍ ومثير؛ لتثيره وتفتنه بما أتت به وحملته من عوالم مذهلة ومدهشة في خطابها الأدبي والفني المُطعَّم والمُؤثِّر.

حقيقة، إن شكل (الحكاية الشعرية) في طبيعته الفنية، ودلالته السردية والشعرية، هو مفهوم أدبي يُمازِج بين فنية القصة وفنية الشعر في نسيج أدبي واضح المعالم، يطلُّ على المتلقي ليشدّ اهتمامه ويجذبه إلى النوع المُحبَّب من الأدب من دون أن يغلب هذا على ذاك من أنواع الأدب، وقد نال هذا التفرُّع الحاصل في النسيج الفني من القصة ومن الشعر في مفهوم (الحكاية الشعرية) الكثير من الاهتمام لدى القارئ الصغير؛ كون هذا التفرُّع الأدبي المذهل يتشكَّل من نوعين أساسيين من الأدب؛ ليقف بالنتيجة، في منطقة وسط بين القصة وبين الشعر، في إنتاجه وفي تأثيره، وهو إنتاج مهم للغاية ومؤثِّر بالغ التأثير في الطفل.

ومع كل هذا، ومع مَقبوليَّة وجواز أن نمزج هذا بذاك من الأجناس الأدبية بشكل ومفهوم أدبي آخر، للخروج بأسلوب وتعبير أدبي مؤثِّر وفاعل، أكثر استجابة لذائقة الطفل المتلقي، يبقى لكل نوع من أنواع الأدب اشتراطاته وفنيته ومتطلباته؛ إذ تبقى القصة قصة، لها أُسُسها ومعالمها، ويبقى الشعر شعرا له أُسُسه ومعالمه في هذا الاتجاه.

وبالعودة إلى قضية الشعر ومناقشته، وإدراك عوالمه وتأثيراته، يمكن القول في هذا الاتجاه: إنَّ للشعر – لو بحثنا فيه وفي ماهيته وأثره وتأثيره، وتعمَّقنا به أكثر وأكثر من زوايا مختلفة، ومن اتجاهات متعددة – لوجدناه، في حقيقته، وفي واقعه، وفي أهميته، أكثر قربًا من الطفل، وأكثر اتِّصالًا والتصاقًا به، من نواحٍ كثيرة سنأتي إليها ونُبيِّنها هنا في سياق هذا البحث.

بدايةً، إذا ما أردنا التعرُّف إلى (شعر الأطفال) بدقة وعمق، والوصول بهذا التعرُّف إلى معرفة طبيعة هذا الشعر وحقيقته وحقيقة أثره ومُؤثِّره في مُتلقِّيه من الأطفال، فلا بُدَّ لنا من الدخول عميقًا في عوالم هذا الشعر، والتعمُّق في بحثه ودراسته بكل جدِّية وموضوعية، وفي هذا الاتجاه، يمكن التأكيد هنا والقول بكل وضوح: إنَّ البحث في (شعر الأطفال) وماهيَّته، والحديث

عنه بدقة وموضوعية، يحتاج إلى رؤية ثاقبة وبعيدة ومُلمَّة بكل الأبعاد والاتجاهات التي تأتي منها بنية القصيدة المتوجِّهة بخطواتها وفنِّيَّتها وعوالمها وأشكالها إلى الطفل المتلقي، لتنطلق – من بعد ذلك – منه وإليه، باتجاه العوالم الخاصة لشعر الأطفال والوقوف على ماهيته وفحوى وجهته ورسالته؛ ومن ثَمَّ معرفته ومعرفة أثره وفاعليته في عوالم الطفل؛ ولذلك يُعد الحديث في شعر الأطفال حديثًا طويلًا ومُتشعبًا للغاية، ولا يقف ولا ينتهي عند حدٍّ معيَّن في هذا الحديث، فحدوده كثيرة ومتنوعة ومتعددة الوجهات والمحاور، وتظل حدودًا مفتوحة دائمًا على أكثر من أفقٍ وأكثر من اتجاه.

من هذا المنطلق، وهذا الإدراك، لننطلق في بحثنا وحديثنا هنا، من بين ما يجب الحديث عنه والانطلاق منه في بادئ الأمر، والأخذ به على القدر المستحق من الأولوية والأهمية، من بين اتجاهات شعر الأطفال، هو ذلك الاتجاه المهم والأهم بدرجة كبيرة من الأهمية، والأكثر إشكاليةً وإثارةً للجدل في فحواه وفي محتواه، وهو الاتجاه الفني والموضوعي والنقدي والنفسي، المُتعلِّق بأثر الشعر وتأثيره في الطفل المتلقي، مع ضرورة التعرُّض في ذلك إلى حاجة هذا الطفل المُتلقِّي إلى الشعر.

في هذا الاتجاه يدفعنا القول في التأكيد على: أنَّ الشعر حاجة وجدانية وثقافية وعلمية أساسية ومهمة، تقف بالمقدمة من الحاجات الأساسية التي يحتاجها الطفل في مجمل أنشطته وفعالياته الحياتية، وفي مختلف تدرُّجاته العُمْريَّة في السن.

ينطلق هذا الإدراك من منطلقات علمية مدروسة بعناية فائقة، فلا مبالغة إذا ما قلنا: "إنَّ الطفل يحتاج إلى الشعر حاجة أساسية؛ وذلك لدوافع وجدانية تمليها غريزة الذات التي ترفع (الأنا) إلى المقدمة من الدوافع، لتعزيز هذه الغريزة وحاجتها إلى الشعور والإحساس بالمتعة والجمال والتخيُّل والابتكار، والشعر خير من يستجيب لهذه الحاجة، هذا إلى جانب الحقيقة العلمية المؤكدة في العديد من الدراسات والأبحاث السيكولوجية، والسوسيولوجية، والسميولوجية، والتي مفادُها: أنَّ الشعر والطفل يشتركان في صفاتٍ عديدة، أبرزها الصفة الموسيقية الداخلية، التي تنطلق من الواقع التنغيمي والإيقاعي في جَرْس اللغة الشعرية الموسيقيّ، وفي فعل الطفل الإيقاعيّ، فالشعر بطبيعته يقوم على أساس موسيقيّ، ويُبنى على هذا الأساس بناءً إيقاعيًا ونغميًا دقيقًا، على وفق نظام لغوي وصوتي موزون، يُميِّزه عن النثر؛ كذلك الطفل بطبيعته، فهو كائن إيقاعي حساس، يميل إلى الإيقاع والتنغيم، وإلى الأصوات الموسيقة في مجمل نشاطاته وأفعاله"[1].

ندرك من هذا أنَّ الطفل يحتاج إلى الشعر حاجة أساسية لا غنى عنها؛ لأنَّ الشعر يدخل في مجمل أنشطة الطفل وفعالياته الحياتية، مثلما يدخل في مجمل ما يحيطه من اتجاهات محيطه الاجتماعي؛ ولهذا يهمُّنا جدًا إدراك حقيقة هذه الحاجة بكامل فحواها وأهميتها وأهمية الاستجابة لها من قِبل المَعنيِّين بصياغة الشعر وإيجاده ونشره للطفل؛ وكذلك من قِبل المعنيين باستقباله وتوجيهه للطفل، والعمل على تلقيه بشكلٍ شفافٍ وسلسٍ ومتواصلٍ من قِبل الطفل المتلقي.

بهذا المعنى، وانطلاقًا منه، وبالعودة إليه لتفسيره من زاوية أخرى، يمكن القول: "إنَّ الشعر يحتاج، إلى جانب ما يحتاجه من أدوات ومهارات وقدرات ومتطلبات، يتمثَّل أغلبها باللغة، والإيقاع، والخيال، والفنية العالية وغير ذلك، يحتاج أيضًا، وبدرجة أساسية ومهمة، إلى الخبرة الواسعة بجمهوره المتلقي، ويأتي ذلك بالدرجة الأولى، عبر إدراك ماهية هذا الجمهور، ومعرفة حدوده وتقديرها، وقياس إطاره الاجتماعي والثقافي والنفسي، وتمايُزه العقلي والنفسي والثقافي، مع إدراك اختلافاته المتنوعة في ذلك، من ناحية التفاوت الطبيعي والحاصل بين فئاته العمرية.

إضافةً إلى ذلك، يحتاج شعر الأطفال ويتطلَّب من مبدعه (الشاعر) موهبة خلاقة ومتجددة دائمًا، لا تقف عند حدٍّ معيَّنٍ من التجدُّد، بل وتعدُّ هذا التجدد نقطة انطلاق وبحث متواصلين، لا نقطة توقُّف واكتفاء، كما نجد هذا الحال عند البعض من شعراء الأطفال عندنا، ممن رهن موهبته ورؤيته وشاعريته عند نمط معيَّن، وأسلوب لا يحيد عنه ولا يتجاوزه إلى ما يجب من التجاوز والانتقال والتطور، تبعًا لما هو مطلوب منه ومن المبدع عامة، وتماشيًا مع حتمية التطور والتغيير والتجدد في الأدوات وفي الأساليب وفي الأبنية الشعرية، التي وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم في بنية الشعر المعاصر للأطفال، والتي فرضتها ظروف التغيير والتطور العصريين، والتي انعكست بالنتيجة على أساليب التلقي وذائقة المتلقي، والتي باتت تفرض على شاعر الأطفال أن يرى ذلك بمثابة التحدي، بل ويدفعه الحال هذا إلى أبعد من ذلك بكثير، فيرى هذا التحدي، في دلالته وفي مغزاه، تحدِّيًا خطيرًا له، ويتطلَّب منه، بالنتيجة، أن يكون بمستوى هذا التحدي، وعلى قدرٍ من المسئولية تجاهه.

ولكي يكون الشاعر؛ وخصوصًا شاعر الأطفال، بهذا المستوى من التحدي والمسئولية، يتطلب منه أن يكون حيويًا ومتجددًا في تجربته وفي كتابته لقصيدة الطفل الجديدة والمتجددة، التي تنطلق منه إلى المتلقي لتكون مستجيبةً لهذا المتلقي، وعلى قدرٍ من التواصل معه والاستجابة

لذائقته ولمتطلَّبات تلقيه للشعر، فالطفل بشكل عام والمتلقي للشعر بشكل خاص، كما يصفه الشاعر الأكاديمي الدكتور علي جعفر العلاق: كائن حسِّي، يغريه النظر إلى العالم والغرق في تفاصيله، يفتنه ملمس الحجر البارد، وتهشُّم الريح على السياج، يشدُّه عن نفسه منظر حيوان وحيد، أو طائر يقاتل طائرًا آخر دونما سبب، تغمره الدهشة لمطرٍ يسقط لأول مرة، أو ضيف يُستقبل بحفاوةٍ ولم يكن قد رآه من قبل.. ولأنَّ الطفل كذلك، فعلى الشاعر أن يكون كهذا الطفل تمامًا، كائنًا يُقبل على العالم بحواسِّه البيضاء المتَّقدة، يقوده جسد طري وخفيف كالفرح، ويعصف به فضول شديد وافتتان بتجربة كل ما يقع في مدى حواسه، يحرِّك الطفلَ فرحُ بالحياة ورغبةُ في التورُّط فيها، فهو في منأى عن ضريبة الوعي الذي يقودنا إلى رصانة هي أقرب إلى الشيخوخة المبكرة، كما أنَّ لسخريته المتدفقة والقريبة إلى النفس، قدرة عجيبة على استدراجنا إلى حياة أكثر اكتظاظا بالجمال والبراءة"[2].

ووفق هذا الوصف الدقيق والعميق، الكاشف والمعالج للطفل، والنظر إليه في منظور الشاعر، من زوايا متعددة، يتطلَّب، وقبل أيِّ شيءٍ آخر، السعي إلى جعله منظورًا سيكولوچيًا وسوسيولوچيًا إبداعيًا عميقًا، يكون حراكه وفاعليته ومنتجه في ذهن الشاعر، وفي ضميره، وفي مُخيَّلته، قُبيلَ تهيئة موهبته وطاقاته، وتحشيد لغته وأفكاره وخياله باتجاه الكتابة للأطفال؛ ولذلك يتطلّب من هذا الشاعر، وأعني به هنا، الشاعر الذي ترافق صفته صفة الأطفال، أن يمتلك روح الطفل، ونفس الطفل، وحواس الطفل، وخيال الطفل، ولغة الطفل، وبراءة الطفل، وعبث الطفل، ونظرة الطفل، ولهو الطفل ودهشة الطفل، وخفَّة الطفل، وفضول الطفل، وسؤال الطفل، وأماني الطفل، وتطلُّعات الطفل، وانتقاد الطفل، ورفض الطفل لما لا يريد، وقبوله بما يريد، من أشياء وعوالم وقيود وحريات، وبالنتيجة يستحيل هذا الشاعر إلى كائن طفلي يعيش واقع الطفل بكل أبعاده وعمقه، وبكل تناقضاته ومُتغيِّراته، على أقل تقدير في حالة الكتابة ونتائجها، فهل يمكن لهذا الشاعر أن يكون هكذا، بهذا التماهي والتمثُّل والتقمُّص والتحوُّل؛ ليتمكن من النجاح في مهمته هذه، ومجاراة واقع الطفل والارتقاء بهذا الواقع بما يتطلب وبما يجب؟.

هذا السؤال الإشكالوي والفلسفي، المهم والخطير، والمثير للجدل، دائمًا وأبدًا، في كل حديث ونقاش يتعرض لشعر الأطفال، والذي يفترض به أَلَّا يغيبَ عن ذهن الشاعر الحقيقي، فيجعله خارطة طريق إلى الطفل، هو سؤال العلاقة الإنسانية الحقيقية، النفسية والاجتماعية والقيمية، وهو في الوقت ذاته سؤال الجدوى من الكتابة للطفل، فهل يا تُرى لهذا السؤال من إجابةٍ حقَّة

تكشف لنا مدى حقيقة ما تكون عليه علاقة الشاعر بالطفل في واقع الكتابة الشعرية الآن، الواقع المعاصر، وهل حقًا هناك علاقة حقيقية تُذكر بين الشاعر والطفل، أم أنَّ هناك هوَّة كبيرة تفصل الشاعر عن الطفل، وتَحُول دون تحقيق رؤية الشاعر لعوالم قارئه، وتمنحه الفرصة المناسبة لاختبار كتابته واكتشاف نتائجها في واقع الطفل؟.

هناك عدَّة آراء في هذا الاتجاه، يمكن لها جميعًا، أن تكشف لنا مرودها بالإجابة الدقيقة عن ذلك، لكن هذه الآراء إذا ما اجتمعت هنا، وأخذناها جميعًا، ربما يأخذ الأمر في ذلك منحًى آخر من الجدل والتحليل، ويطول الحديث بنا ويتفرَّع إلى ما لا نريده في هذا التفرُّع، الذي قد يدفعنا إلى التشظِّي، أو الابتعاد عن نقطة الارتكاز المهم في بحثنا هذا، وقد وجدنا من بين ذلك ما يهمُّنا ويستجيب لنا بشكلٍ أدق وأصوب، في ذلك الرأي الدقيق والمهم، الذي يذهب فيه القول إلى أنَّ: "ثمَّة هُوَّة كبيرة، كما يبدو، تفصل بين واقعين لشعر الأطفال، يكون شاعر الأطفال، في الواقع الأول، رجلًا مكتهل الروح يكتب عن الطفل، ويتحدث عنه لا إليه، يكتب للطفل استنادًا إلى معرفة عقلية بالحياة والعالم لا غبار عليها، لكنها معرفة تفتقر إلى تلك الخفقة الوجدانية، وذلك الدفء الحسي الصافي.. أما الواقع الثاني، فيتمثل في شاعر لم يفارق طفولته لحظة واحدة، لا يكتب عن الطفل، بل يتحدث إليه كطفل مثله، يشاركه عبثه البريء، وقلبه المفعم بالطَّرَب، ويمتلك، مثله، عينين تأكلان كل شيء تريانه من فرط الدهشة، وشدة الإقبال على الحياة"[3].

نعم، هذا ما يحصل الآن في أساليب الكتابة الشعرية للأطفال في واقعنا المعاصر، كما ذهب إليه هذا الرأي الدقيق، في منظوره وفي تحليله العميقين، وهذا ما نذهب إليه منذ زمن، ويذهب إليه انطباعنا العلمي، في كشفه، وفي متابعته، وفي منظوره النقدي والتحليلي، الذي يتيح لنا الرؤية العميقة، والتفسير الدقيق للمساحة المنظورة من المشهد الشعري العام، لشعر الأطفال في العراق، بكل سَعَةٍ ووضوح؛ لنصل بذلك إلى حقيقة لا مهرَب منها ومن نتائجها، التي تؤكِّد لنا بما لا يقبل الشك، بأنَّ واقع الكتابة الشعرية للأطفال الآن، حقيقة، هو واقع ملتبس، بل هو واقع إشكالي خطير، يقع بين واقعين متنافرين، يجاهد الأول ويسعى لفهم الطفل والاقتراب من مجسّاته الصحيحة والمؤثرة في التلقي، بينما نرى الثاني يحاول ويحاول في أديم الكتابة، ولا نرى في ذلك إلا محاولات متكررة لاستغفال الطفل والتحايل عليه، في كتاباتٍ لا تعدو أن تكون منظومات تعبيرية تنتمي إلى الشعر شكلًا ولا تنتمي إليه روحًا.

هذا الأمر هو الغالب الآن في كثير مما يُنشر الآن من شعر الأطفال عندنا، إذ يقدم بعض

الشعراء، وقبل أي شيء آخر إلى تقديم نصائحه الجاهزة للطفل وتوصياته للاهتمام بكذا وكذا، والتقيُّد بنصائحه في هذا الاتجاه أو ذاك، فتأتي قصائد هؤلاء بمثابة (الخطبة) أو (ورقة تعليمات) صارمة، وإن أتت بهية الشعر من الناحية النظامية والمعمارية، مثلما نطالع من ذلك بعض ما يوصف بقصيدة أو شعر الأطفال، وفات كُتَّابَ مثل هذا الشعر إن شعر الأطفال لا يأتي تصغيرًا لشعر الكبار ونقلًا عنه وتبسيطًا له في الشكل والمحتوى، إنه أكثر حساسية في اللغة والخطاب والدلالة والخيال، وأخطر وجهة في توجُّهاته، كونه يتوجَّه لكائن عجيب وحسَّاس ومَلُول، لا يُقبل على الشيء بسهولة، ولا يتقبَّله بسرعة، كما يعتقد البعض، حين يتناسى ذلك، ويذهب بهذا الاتجاه، الذي يحاول من خلاله استغفال الطفل وخداعه، إذ لا يمكن للشاعر "أن يخدع الطفل بالحكمة المجردة، أو العمل الفاضل بالشجاعة أو الكرم إذا جاءه أيٌّ منهما على شكل فكرة ذهنية باردة، أو مشهد فقير، إن الكتابة للطفل بلغة مكتهلة وروح مليئة بالمشاعر السلبية، تخييب لمُخيِّلة الطفل ومجافاة لإشراقة روحه.. إنَّ من أولى المهمات المترتبة على شاعر الأطفال هو أن يحترم مخيلة هذا المتلقي الصغير، فائق الحساسية، وأن يرتفع إلى ما فيها من خصب وشيطنة مُحبَّبة"(٤).

من هنا تتأتَّى خطورة الكتابة للأطفال بشكلٍ عام؛ وخطورة الكتابة الشعرية لهؤلاء الأطفال بشكلٍ خاص؛ كونها تنطلق إلى قارئ حسَّاس ومزاجي ومُتغيِّر، لا يحابي ولا يجامل على حساب حاجته ورغبته وتطلعاته، ولا يقبل لحاجاته المُلحَّة تلك الاستجابات العشوائية والانفعالية، التي يأتي الكثير منها من منطلق (تطييب الخواطر والرغبات للإرضاء السريع)، هذا المنطلق الذي يلجأ إليه السواد الأعظم من الأُسَر، وكثير من المَعنيِّين بالتعامل مع الطفل، هذا الطفل الذي يفكِّر تفكيرًا عميقًا لا يتجاوز عالمه الخاص، نعم، تفكيره يختلف عن تفكيرنا تمامًا، لكنه لا يسير بالضد من تفكيرنا، هذا الطفل لا يقبل أبدًا، أن نتعامل معه بسذاجة، بأي حال من الأحوال، يريد منا أن نفهمه جيدًا، ونتعامل معه جيدًا، ونستجيب لحاجاته جيدًا، وبالشكل الذي يُرضيه ويُقنعه، ويُشعره بأهميته وقيمته بما يجب ويستحق من الأهمية والقيمة، وبهذا الاستحقاق فإنه لا يريد منا التعامل مع مشاكله من دون دراية، نعم، لا يريد لمشاكله الحلول الوسيطة، أو الترقيعية، أو تلك الحلول والاستجابات التي لا ترضيه ولا تقنعه.

هذا هو الطفل، وهذا ما يجب أن يعرفه ويدركه شاعر الأطفال، وهو يخطو إلى هذا الطفل في الكتابة الشعرية، تلك الكتابة الحساسة، والخطيرة، والمثيرة لكثيرٍ من الجدل، والالتباس،

والقصور، وحتى لسوء الفهم، والفهم المعاكس في كثيرٍ من الأحيان، هذا الفهم الذي نشعر بوجوده وتأثيره باتجاهين مُهمَّين، اتجاه الجمهور واتجاه الشاعر.

في الأول: نسبة كبيرة من الجمهور لا تدرك حقيقة شعر الأطفال ووظائفه ومهماته وجدِّيته حق الإدراك، وتنظر إليه بقصور لا يخلو أحيانًا من استخفافٍ واضح، خفيّ أو مُعلَن لدى البعض، وهذا ما يسيء إلى هذا الشعر ويعرقل خطواته في الوصول إلى الطفل، ويَحُول دون تحقيقه لغاياته وأهدافه، ويدفع بجعل شعر الأطفال في المراتب الخلفية من الاهتمام والطلب، وحتى التلقي.

أما في الثاني: فالشاعر يعي تمامًا وقع الفهم المعاكس عليه، ومدى أثره السيئ في نفسه، وفي شعوره، والأكثر سوءًا من ذلك، كما يحس ويشعر، هو تداول الجمهور لهذا الفهم، والإصرار عليه، في الخفاء والعلن، وهذا ما يدفع بالشاعر إلى النكوص والتراجع في خطواته وفي كتاباته، في مرات عديدة، وكثيرًا ما يحزُّ هذا في نفس الشاعر، الشاعر الحقيقي للطفل، ويزيد من حدَّة الشعور بالألم في دواخل نفسه؛ فيدفعه ذلك إلى التساؤل بمرارة في بعض الأوقات: ما جدوى كتابة لا ينتبه إليها من كُتبت له هذه القصائد، إلا بعد توصية وتنبيه من آخرين وسطاء بين الشاعر ومتلقي شعره، وهؤلاء، في الغالب، لا يعنيهم مَن يكون الشاعر بقدر ما يعنيهم كتابة الشاعر ومدى فائدتها وحاجة الطفل إليها؟!.

الجدوى واللاجدوى مسألة مثيرة وقاسية ومخيفة في نَفسٍ، وفي تفكير كاتب الأطفال عامَّة وشاعر الأطفال خاصَّة، ولا أعتقد أنَّ كاتبًا من كُتَّاب الأطفال، أو شاعرًا من شعراء الأطفال، على وجه التحديد، لم يسأل نفسه يومًا هذا السؤال: (ما جدوى أن أكتب للأطفال؟.).

هذا السؤال، للوهلة الأولى، يُشعرك بالإرباك، والمرارة، والضياع أحيانًا، فشاعر الكبار – إن صحَّ التوصيف وصحَّت التسمية – يكتب ويرى جمهوره يتغنى بقصائده، ويأتي إليه ليتحاور معه ويناقشه حول هذه القصيدة أو تلك، إذن هذا الشاعر يعرف جمهوره ويلتقي به، أما شاعر الأطفال فهو يكتب ولا يرى جمهوره أو يلتقي به إلا ما ندر، وكثيرًا ما نرى شاعر الأطفال وهو يلقي قصائده أمام جمهور من الكبار، البعض منه لا يستسيغ سماع هذا الشعر لأنه لا يعنيه، ولا يستجيب لذائقته ولا لمستويات تَلَقِّيه وسماعه للشعر.

ومع هذا يقرأ شاعر الأطفال ويلقي قصائده بإصرار أمام هذا الجمهور، الذي يُعد بحساب (الفئة العمرية) في حساب الكتابة للأطفال، هو الأب والجد لجمهوره الحقيقي، فهل هذا الأب

وهذا الجد أتيا إلى (قراءات شاعر الأطفال) ليستمعا له نيابة عن أطفالهما؟.. ولماذا لم يسمحا لأطفالهما للمجيء إلى هنا ويستمعا إلى شاعرهم كما يجب بشكل طبيعي؟.

للأسف الشديد، نحن حتى هذه اللحظة، ومع كل هذا الزَّخَم الحاصل من التطور في كل الوسائل الثقافية والتربوية والإعلامية وغيرها، لا زلنا غير قادرين على إعداد الجمهور وتهيئته لحضور النشاطات الثقافية والأدبية والفنية، والاستماع إلى القراءات الشعرية بشكلٍ حَيٍّ ومباشر؛ خصوصًا جمهور الأطفال، وهذه النقطة من بين نقاط مهمة أخرى، كانت قد وسَّعت من حجم الهوَّة الكبيرة بين شاعر الأطفال وجمهوره المتلقي من الأطفال، ودفعت بشاعر الأطفال إلى إعادة تكرار التساؤل بذات السؤال السابق: (ما جدوى الكتابة للأطفال؟.).

هذا السؤال القَلِق والصعب، لا زال يتكرَّر ويُعاد في أكثر من مناسبة، ويبقى مثيرًا للجدل كلَّما ذُكر أدب الأطفال، وأتى هذا الذكر إلى فنية الكتابة للأطفال وأهميتها وضروراتها، لكنَّ هذا السؤال يأخذ منحًى آخر من التساؤل والإجابة عنه لدى البعض، وأكثر خطورة في هذا المنحى عندما يدور في ذهن البعض من كُتَّاب وشعراء أدب الأطفال؛ فيدفعهم ذلك إلى منعطف خطير، يشكل لديهم حالة ضغط وقلق شديدين، يرون فيها الكتابة للطفل أقل قيمةً من الكتابة للراشدين، وأكثر خطورةً من ذلك، عندما يذهب البعض من هؤلاء عميقًا في تفكيره، كاتبًا أو شاعرًا كان، فيتفكَّر جدوى الكتابة للطفل باتجاهاتٍ متعددة، لا يبتعد الكثير منها عن النتائج القاسية لهذه الكتابة على هذا الكاتب أو ذاك الشاعر، فيرى في ممارسته لهذه الكتابة ما يشبه (النفخ في بوق مثقوب)، ويسعى مرارًا لإقناع نفسه بوجود الجدوى من كتابته، لكن طغيان قوة (ألَّا جدوى) ورجحانها في قناعاته يدفعه الإحساس مع نفسه، بلا جدوى هذه الكتابة، ويشتدُّ لديه هذا الإحساس بدرجة قوية، يدفعه بالنتيجة إلى ترك هذه الكتابة وهجرها بلا رجعة؛ خصوصًا عند بعض التجارب المهمة من الإبداعات التي يحتاجها أدب الأطفال، وبالذات من الطاقات الشعرية الكبيرة، من بين أولئك الشعراء الذين تعاملوا مع الطفل بدقة، وبرؤية عميقة خلال الكتابة له، وقد أنتجوا لهذا الطفل في هذه الكتابة نماذج رائعة من شعر الأطفال، خلال السنوات الأولى من النهضة الفنية الجديدة لشعر الأطفال في العراق، في السبعينيات والسنوات الأولى من الثمانينيات، حيث كان لقصائدهم الجميلة التي كتبوها للأطفال صدًى طيبٌ وخصوصيةٌ متميزة في شعر الأطفال، لا زلنا نذكرها بعين التقدير إلى يومنا هذا، مع أن هؤلاء الشعراء، هم بالأساس ليسوا شعراء أطفال، ولم يكتبوا إلا القليل من الشعر للأطفال، غير أن هذا القليل له

قيمته وأهميته في واقع شعر الأطفال في العراق، لكن البعض منهم كان ينشر قصائده بأسماء مستعارة، خشية الشعور بالخجل من الكتابة للطفل في بادئ الأمر، وقبل أن يكتب لها وينشر بصريح الاسم بعد ذلك، بعد تجاوزه لحالة الاهتزاز بالقناعة ومن ثَمَّ رسوخها في نفسه بعد حين، بعد القناعة والإيمان الشديدين بها، مثلما صرَّح بذلك وعبَّر عنه الشاعر نبيل ياسين في جانب من إجابته على سؤال دقيق يتعلّق بشعوره خلال كتابته للطفل، حيث قال في ذلك: "لقد كنت من أوائل من كتب للطفل في المرحلة الثانية من أدب الطفل، هذه المرحلة بدأت مع مجلتي والمزمار في بداية السبعينيات، كنت أوقِّع قصائدي الأولى بأسماء مستعارة لأنَّ الكتابة للطفل، كانت تعني مستوى أقل، قبل أن أتشجَّع وأضع اسمي متحدِّيًا نصائح بعض الأصدقاء بعدم التورُّط بذلك، لقد كتبت بشعورٍ عالٍ من الإحساس بالطفولة، لا بُدَّ أن تكون طفلًا لكي تكتب لروح الطفل"[5].

صاحب هذا الرأي الشاعر نبيل ياسين هو من بين الشعراء المتميزين القلائل الذين كتبوا شعرًا متميزًا للأطفال؛ خصوصًا في ديوانه الرائع (الوردة قالت للقمر)، ديوانه الوحيد الذي نشره للأطفال، وقد صدر عن دار ثقافة الأطفال عام 1980، نقرأ منه ما يقول في قصيدة (الجرس في الإجازة الصيفية)[6]:

ويومـًا حين جئناه
رأيناه ... رأيناه
حزينا تملأ الآه
بليلِ الصمتِ مأواه ...
ولكن حينما جئناه في ركض
وجدنا قلبَه من دون نبض،
قرعناه ... قرعناه
ومن فرحٍ، بكيناه
فلما فتح العينين
وشاهدنا جميعا نملأ الساحة
هنالك دقَّ في فرحٍ
وشعَّت بالندى والحب عيناه
ودقَّ .. ودقَّ

وظلَّ يدقُّ لم يتعب
كأنَّ رنينَهُ عُرْسُ
وظلَّ يدقُّ .. حتى ضمَّنا الدرسُ ..

في هذه القصيدة التي صاغها الشاعر نبيل ياسين بأسلوبٍ حكائيٍّ سلسٍ وجميل، جسّد فيها قصة جرس الدرس الذي عاد إليه الأطفال بعد أيام العطلة الصيفية، وكيف وجدوه، وكيف كانت فرحته وهو يراهم بعد أيام العطلة، وكيف نهض بكل عنفوان ليقرع من جديد؟.. وقد رمز الشاعر في هذه (القصيدة / الحكاية)، إلى المقارنة والتمييز بين حالة الخمول أو الكسل، وحالة النشاط والحيوية، التي تجسَّدت بعودة الأطفال إلى صف الدراسة، واستقبالهم من قِبل الجرس، الذي نهض من كبوته ليعبِّر ويعلن عن فرحه وعودة النشاط والعنفوان له وللطلاب وللمدرسة بقَرْعِه المتواصل.

ومن القصائد الجميلة الأخرى لهذا الشاعر قصيدة (الصديق)[7]، ونقرأ منها:

قالت هند: عندي ورد
قلنا: اسقيه،
قال أسامه: عندي حمامه
قلنا: أطلقها،
قال سعيد: عندي نشيد
قلنا: اقرأه،
قالت سلوى: عندي حلوى
قلنا جميعا: نأكل منها،
قال أوس: عندي درس
قلنا: اكتبه،
قال شفيق: عندي صديق
قلنا: ما اسمه؟.
قال: الناس ...

نبيل ياسين هذا الشاعر المبدع، قد ترك بصمته الواضحة في شعر الأطفال في العراق، لكنه، للأسف الشديد، قد غادر الكتابة للأطفال، فشكَّل ذلك خسارةً كبيرة لهذا الشعر.

إلى جانب الشاعر نبيل ياسين هناك الشاعر مالك المُطَّلبِي الذي كتب للأطفال برؤية عميقة قبل أن يغادر ميدانه؛ كذلك الشاعر مالك الواسطي، هو الآخر كشاعر للكبار، قد كتب بعض القصائد للأطفال وغادر هذه الكتابة.

بالإضافة إلى هؤلاء، تبرز أمامنا تجارب أخرى عديدة لشعراء آخرين كتبوا للطفل بإحساسٍ عالٍ، وبدرجة كبيرة من الأهمية والمسئولية، لكنهم لم يتواصلوا مع هذه الكتابة، وظلت قصائدهم الجميلة التي كتبوها للأطفال خلال سنوات السبعينيات، حاضرة في الأذهان إلى يومنا هذا، تُذكِّرنا بهم وبتجاربهم الأولى في شعر الأطفال، وفي المقدمة منهم الشاعر علي جعفر العلاق، الذي لم يكتب سوى القليل من القصائد المعدودة للأطفال، لكنها، على الرغم من هذه القلة، كانت بليغة ومؤثرة، ولا يمكن تجاوزها بالنظر إلى بصمة القصائد المتميزة من شعر الأطفال في العراق، ومن بين هذه القصائد التي أبدعها العلاق في سنوات السبعينيات قصيدة (طار العصفور)[8]، التي نقرأ منها:

طارَ العصفور،
حطَّ العصفور
وسماء الوطن المرتفعه
تتغنَّى كالأطفال معه
وتظلُّ تدور،
طار العصفور ..
طِرْ يا عصفور على وطني
وتعالَ.. تعالَ لتحملني
لجنوبٍ وشمال
ومياهٍ وتلال
نصنع راياتٍ لبلادي
وسماءً من نور
طار العصفور..

وكذلك من القصائد الجميلة التي صاغها الشاعر علي جعفر العلاق للأطفال، والتي تركت بصمتها الواضحة في ساحة شعر الأطفال في العراق، قبل أن يغادرها هذا الشاعر بتجربته المتميزة، هي قصيدة (أغنية الروضة)[9]، التي يقول فيها:

يا زهرةً يا غضَّه
نحن صغار الروضه،
نرسم في قلوبنا
شمسا
بلون الفِضَّه،
وموطنا نحمي
سماءَه، وأرضَه
وسوف نحميه، كما
نحمي زهورا
غَضَّه..

وهناك مساهمة متميزة في شعر الأطفال، هي المحاولة الجميلة للشاعر والناقد حاتم الصكر، تلك التي كتبها وصاغها للأطفال بصيغة الحكاية الشعرية للأطفال التي تدور بين (الذئب والحِمْلان الثلاثة)[10]، والتي لا نريد التعرُّض لها بالنقد والتفسير، بقدر ما نريد الإشارة هنا إلى أهمية هذا النص، وكاتبه الذي غادر ميدان الكتابة للأطفال منذ تلك المساهمة التي تركت بصمتها في شعر الأطفال، نقتطف منها التالي:

مرحبا يا أصدقائي
يا أعزَّ الأصدقاء
اقبلوا مني هديَّه
باقةَ الوردِ الجميله
آه!... لكنِّي أراكم جائعين
وبأجسامٍ هزيله
ما الذي يُبقي صغارًا طيبين،
مثلكم، في هذه الأرض الجديبه؟!..
حيث لا ماءٌ ولا ظِلٌّ.. ولا حتى شجر،
فاتبعوني
اتبعوني أيها الحملان

ما أحلى السفر!
للحقول الخُضْر في حضن النهر..

ومن الشعراء العراقيين الآخرين الذين كتبوا للأطفال بروح الطفل، وبإحساس شديد بطفولة هذا الطفل، في تجارب أولى لهم قبل ترك الكتابة للأطفال ومغادرة ميدانها الإبداعي، نستذكر هنا ما كتبه الشاعر جواد الحطاب من قصائد جميلة في هذا المجال قبل تركه الكتابة فيه، من بينها قصيدة (نجمة)[11]، ونقرأ منها:

يوما ما
عاد الحطَّاب من الغابه
وجد النجمَه
بالأنوار تلوِّن بَابَه،
دخل البيت
ألقى في الموقد أعشابَه
راحَ سريعا
ليعدَّ لها إفطار اليوم
لكن لمَّا نضجَ الأكلُ
وجد النجمة قربَ الموقدِ
كانت غارقةً في النوم..

إنَّ ما تمَّ استعراضه وعرضه من تجارب ونماذج هنا، يأتي للتدليل على أهمية التفكير في شعر الأطفال وحاضنته في ذهن الشعراء الآخرين في العراق، ممَّن لم يتفرغوا تمامًا لشعر الأطفال، ولكنهم ساهموا بصياغة نماذج جيدة في هذا الشعر، أما الشعراء البارزون من المتخصصين والمتفرغين لشعر الأطفال عندنا، فهم الآن في صدارة المشهد الشعري المُوجَّه للأطفال في العراق، والأمر يطول لو تعرضنا لأسمائهم ولتجاربهم المهمة في شعر الأطفال، وسنترك البحث والإشارة في هذا الاتجاه لمحاور أخرى من الدراسة.

وتتابُعًا مع قضايا محورنا الخاص بشعر الأطفال هنا، لا بُدَّ من العودة إلى موضوعة الشاعر وكاتب الأطفال وجمهوره، هذا الموضوع المُهمّ والحسَّاس، الذي يتطلب منَّا ومن الجميع الوقوف عنده طويلًا، ومناقشته بدقة وعمق؛ لكي نحدد من خلاله موقع الشاعر وكاتب الأطفال وحدود وصله وتواصله مع بيئة الطفل المتلقي وحدود تلقِّيه وفهمه.

في هذا الاتجاه، يمكن القول والتأكيد، حقيقة، أنَّ هناك شبه قطيعة بين كاتب أو شاعر الأطفال ومتلقيه، أو فلنَقُل هناك حجابٌ يفصل بين كاتب الأطفال ومتلقيه، وهذا الحجاب لا زال يوسِّع من دائرة الهوَّة الكبيرة بين الكاتب والطفل، وهنا تكمن إشكالية الكتابة للأطفال، ومعضلة الجدوى من هذه الكتابة، ومن هنا تبرز ذروة المعاناة التي تحيط بكاتب الأطفال، والحالة التي تزيده غموضًا في حقيقة صلته بجمهوره؛ مما يزيد من حدَّة الصراع واحتدامه في داخله، خصوصًا مع نفسه ومع إبداعه المُوجَّه توجيهًا مبرمجًا ومُقنَّنًا وحَذِرًا وقلقًا؛ وذلك لخاصة جمهوره من الأطفال، وكل ذلك يدفعه في الغالب إلى الانتكاسة أحيانًا، وإلى الشعور باللاجدوى من كتابته في أحيانٍ كثيرة، وهذا الحال يضعه أمام امتحان عسير، ومجابهة حقيقية مع نفسه ومع جمهوره ومع أدواته التعبيرية، التي تضع الأطفال وحاجاتهم في التلقي له معيارًا حقيقيًا لتوجُّهاته، وفي كل ذلك تزداد هواجسه احتدامًا وقلقًا، يصل أحيانًا إلى حدِّ الاهتزاز في القناعات، والشك في قدرة الكتابة وتقصيرها في عدم الوصول الجاد إلى الطفل، والمشكلة في هذا الاتجاه أن هذا الشعور يبرز بعد اتساع التجربة ورسوخها، وبعد أن تتعمَّق هذه التجربة في معطيات الكتابة للأطفال، حيث يشعر كاتب الأطفال، إزاء ذلك، شعورًا غريبًا وخطيرًا في مساره الإبداعي، يتصوَّر من خلاله مدى المسافة والغربة بينه وبين جمهوره؛ فيتصوَّر أحيانًا أنَّه يكتب لجمهور مُتخيَّل، جمهور يتأرجح بين الواقع والخيال، بين الحضور والغياب، جمهور يراه ولا يراه، جمهور يكتب له ويخاطبه دون أن يسمع منه صدًى لخطابه، أو دون أن يتلقى الإجابة ونتائج ما يكتبه، فيعتقد بذلك أنَّه كمَن يسير في صحراء واسعة ويُطلق الأصوات بصوتٍ عالٍ دون أن يسمعه أحد.. وهكذا يظل صراع كاتب الأطفال مع شكِّه ويقينه بجدوى كتابته للأطفال يتجدد من حينٍ إلى آخر في داخله، ولا يخلو هذا الصراع من التصادُم المرير بين القوى الإيجابية والقوى السلبية في ذات الكاتب؛ إذ إن الإيجابية من القوى تدفعه إلى مواصلة الكتابة، والسلبية من تلك القوى تدعوه إلى ترك هذه الكتابة!.. ومجددًا يتكرر السؤال الشائك والخطير في ذات هذا الكاتب: (ما جدوى الكتابة للأطفال؟).. وهنا يحاول الكاتب بقوته الذاتية، وإيمانه الراسخ أن يجيب بقناعة تامة متجاوزا الكثير من الصعوبات التي يغضُّ النظر عنها في كثيرٍ من الأحيان)[12].

وفي أحيان، وحالات أخرى كثيرة، لا يقوَى الكاتب على مجابهة قوة وهجمة هذا السؤال المرير و(الشرس)؛ فيهرب منه ويتركه من دونِ إجابةٍ شافية، أو يتركه ويترك معه كل صلة له بهذه الكتابة، ونعني بها الكتابة للأطفال، وهذا ما تمَّ استنتاجه ولمسه لدى العديد من الكُتَّاب الذين دخلوا ميدان

الكتابة للأطفال، وكان لهم شيء يُذكر من قصة أو قصيدة أو أية كتابة أخرى في هذا الميدان، لكنهم، بعد ذلك، خرجوا منه هاربين، تاركين رايتهم منتكسة على أرضه، لسببين – كما نعتقد – يكمن الأول: في عدم قدرتهم الذاتية، ومنها تحديدًا: الفنية والإبداعية، على الانسجام مع الطفل ومع متطلبات تلقِّيه؛ وكذلك الحال من الناحية اللغوية بالنسبة إلى هؤلاء، في عدم قدرة لغتهم الذاتية، التعبيرية والأسلوبية، على التناسب والتناسق والاتفاق مع القاموس اللغوي للطفل، ومتطلبات لغته الخاصة في أي مستوى من مستوياتها، وهذا جانب مهم من جوانب الطلب والمتطلبات الأساسية المهمة لعملية الكتابة للأطفال، التي لا يتمكَّنون من مجاراتها والاستجابة لها، فيتنحَّون عنها جانبًا، ونجد منهم من لا يعترف بحقيقة ذلك أمام الملأ، فيأتي بالأعذار والمبررات لذلك، ويتحجج بحجج مختلفة، الكثير منها غير دقيق، وتعبر عن مدى تخبُّطه وتخوُّفه من ميادين الطفل وأساليب الكتابة له، وعكس هؤلاء، هناك من يُصرِّح تصريحًا واضحًا بعدم قدرته على الكتابة للأطفال، وفشله في محاولاته المتكررة في ذلك، ويعترف بذلك اعترافًا كاملًا، وبكل صراحة وشجاعة، ومن دون خجل، ولِمَ الخجل من حقيقة لا تشكل مَثْلَبَةً أو عيبًا للمعترف؟!.. بل هي الشجاعة بكل صدق، والصدق بكل شجاعة لهذا المعترف؛ الواثق من نفسه، ومن مقدرته، ومن قوة إبداعه في الجانب الآخر، مثلما حدث ذلك أمامنا، يوم التقينا بالكاتب الروائي الكبير عبد الرحمن منيف في بغداد عام 1981، واعترف لنا بكل وضوح وصراحة عن عدم مقدرته للكتابة للأطفال، ولم يُوفَّق في أكثر من محاولة له في هذا المجال، وقد كتبت أكثر من شهادة وموضوع في ذلك(*).

إن اعتراف وشهادة هذا الكاتب الكبير بعدم نجاحه في محاولة الكتابة للأطفال، تنطلق من صعوبة هذا الأدب أمام بعض المواهب وإن كانت مواهب خلاقة وكبيرة، ومع ذلك، هناك من يأتي ليقلل من أهمية هذا الأدب، وأهمية كاتبه، ويُشعره بعدم جدواه وجدوى كتابته، ويدفعه إلى التنصُّل من هذه الكتابة ومغادرتها، مثلما اندفع البعض في ذلك، وصدَّق بعدم جدوى الكتابة للطفل؛ نتيجةً لهذا الشعور الذي راح يتفاعل في داخله، ويثير أكثر تساؤل في أعماقه ينتهي إلى حوار ونقاش مطوَّل مع الذات، يسير هذا الحوار وهذا النقاش، إلى أكثر من اتجاه وتفسير، بعضها لا يخلو من سلبية في جوانبه الإيجابية، وبعضها الآخر أيضًا، هو الآخر لا يخلو من إيجابية في جوانبه السلبية، وعلى الرغم من ذلك، هناك من الكُتَّاب؛ وخصوصًا الكُتَّاب الحقيقيين

(*) - يُنظر: فاضل الكعبي - أنا وعبد الرحمن منيف وأدب الأطفال، الكيان الثقافي للطفل، مؤسسة العروة الوثقى للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص ١٨٣.

من يؤمن بصعوبة ووعورة الطريق ونتائج السير في مسار الكتابة للأطفال، وإن هذه الكتابة قابلة للسلب والإيجاب في مردودها للكاتب، وفي منعكساتها على شخصيته الاجتماعية والإبداعية والثقافية، ويؤمن أيضًا إن هذه الكتابة في طبيعتها وفي نتائجها، قابلة على فرز السلبي وفرز الإيجابي في إحساس الكاتب وشعوره من وراء هذه الكتابة ودأبها، وإنَّ بإمكان هذه الكتابة أن تعطيَه المكانة الإنسانية والأدبية الكبيرة، وبإمكانها أيضًا، أن تعطيه عكس ذلك، ومع هذا فهو يؤمن دائمًا، وهذا هو إيمان ودَيْدَن الكاتب الحقيقي والمُجِدّ إن الكتابة للأطفال رسالة ومسئولية وأمانة، على الرغم من كل الصعوبات والتحديات التي يراها هذا الكاتب في طريقه؛ لأنه يدرك تمامًا: "إن الكتابة للأطفال، دأب خاص يشبه إحساس النملة بالحياة، التفاصيل الصغيرة، الصعوبات الحياتية، التلكُّؤ، الخوف، الانسحاق تحت ظل ضخامة الأشياء، غير أنَّ كل ذلك يقترن بالمطاولة، المطاولة الدؤوب حدَّ الفَناء.. إنَّ الكتابة للأطفال هي نوع من التضحية اللانهائية من دون ثمن، ومرات يتساءل المرء: ما الذي يحققه الوالدان بعد أن يسهرا على تربية طفلهما غير العرفان؟!.. وكذا هو حال كاتب الأطفال، فما الذي يجنيه وهو يفني سنوات العمر من أجل قصص وقصائد وأناشيد يتهجَّى أحرفها الأطفال ثم يعبرون، يعبرون الزمن والأحداث، وربما لا تُثمر الذاكرة بعدها عن تذكُّر، وتمر أسماء الكُتَّاب والشعراء الذين ملئُوا حياة الطفولة بالقول والقص والغناء، دونما إشارة أو دليل أو ذِكْر"(13).

ومع كل هذا يبقى الشاعر الحقيقي يملأ حياة الأطفال بالقَصِّ والإنشاد والغناء، ويشعر الشاعر معها بزهو الحياة معه وإشراقتها بإشراقة روحه الغضَّة البريئة المدهشة، حيث يرى الشاعر في ذلك سعادة ومَسرَّات وخصبًا وبارقة أمل وإشراقة، ما كان له أن يراها في عالم الكبار وصخبه الضاجِّ بالغربة والعزلة؛ وبأكداس من المآسي والويلات والخيبات، وغيرها من مصادر جدب الحياة وقحطها.

هكذا يجب على شاعر الأطفال أن يميّز بين نظرته إلى الحياة، ونظرة الطفل إلى هذه الحياة، وإن أتى إلى منطلق النظرتين وملتقاهما في مسار الإبداع، عليه أن لا يجعل نظرته في صياغات الإبداع لهذه الحياة تطغى على نظرة الطفل، وإن أراد أن يسيِّر مسارات نظرة الطفل وينظِّمها في ناظمٍ صحيح، عليه أن لا يحدَّدها ويُقنِّن حدودها برؤية ضيقة، على أن يطلق معاينة الطفل إلى آفاق بعيدة، قد يراها ولا يراها في تلك الآفاق، لكنها تراه لأنها ترتكز في ذلك المستقبل الذي ينشُده الطفل.

إن المهم في ذلك، هو أن يعي الشاعر – وأعني شاعر الأطفال – التمايز الحاصل بين نظرته إلى الحياة وإلى الأشياء، ونظرة الطفل المختلفة تمامًا، إلى هذه الحياة وهذه الأشياء، وأن يجد الشاعر نقطة ارتكاز حقيقي لهاتين النظرتين، مع إيجاد محطة التقاء مناسبة لتفاعل وانطلاق هاتين النظرتين في مسار تعزيز الحياة الإيجابية والمثمرة بثمار ما تنتجه الأشياء المؤثرة فيها.

هذا المنظور كثيرًا ما يلتبس على الكاتب؛ وخصوصًا الشاعر الذي يريد التوجه بكتابته للأطفال، فيجد الضبابية كامنة في مكنونه؛ وبالتالي يجد الصعوبة تكبِّل وجهته ولغته وتعبيراته، فتمنعها من الوصول إلى الطفل، وفي هذا تتضح بعض معالم الصعوبة؛ وخصوصًا في مجال الكتابة الشعرية للأطفال، تلك التي تجتاح روح الشاعر وتملؤها بالمخاوف من تجاوز الموانع الحاصلة بينه وبين الطفل، والتي لا يمكن إزاحتها وتجاوزها إلا بذلك الفعل الرسمي الصحيح، الذي يروِّض هذه الموانع ويُزيحها بشكلٍ طبيعيٍّ وسَلِس، ولا يأتي هذا إلا من خلال قدرة الشاعر وتمكُّنه الفني والإبداعي من ذلك.

إن الحال هذا، والنظر إليه في منظور الكتابة الحقيقية للطفل، هو الحال الذي جعل الكثير يتخوَّف ويتهيَّب من الدخول إلى عوالم هذه الكتابة لخشيته من الفشل وعدم النجاح فيها، وإن تجاوز البعض مخاوفه وأفلح – نوعًا ما – في الكتابة القصصية، فإن الأمر في الكتابة الشعرية ظلَّ عصيًا؛ ولهذا تجد هناك ولادة في مخاض القصة بين حينٍ وآخر، وإن كانت بعض هذه الولادات عسيرة، وبعضها الآخر أتت (مُشوَّهة)، إلا أن هناك من كل ذلك ولادة صحيحة تدفع باستمرار هذا النوع الأدبي من التناسُل والتجدُّد، إلا أن الأمر في مخاض الشعر لا زال منذ سنوات في منطقة التنبُّؤ والحُلْم، ولم يأتِ بولادة جديدة، إلا أننا، على الرغم من ذلك، نُبشِّر بولادة صحيحة لشاعر أطفال جديد، وقد وجدنا ذلك في قصائد عديدة لشاعر شاب اسمه (حيدر غازي سلمان 1976)؛ خصوصًا في مجموعته الشعرية البِكْر (قصر من الرمال – دار العالم العربي للنشر 2012)، على الرغم مما لدينا من ملاحظات نقدية حول جوانب عديدة من قصائد هذه المجموعة، فإنها بالنتيجة قصائد مؤهلة من هُويَّتها، ومتمكنة من الدخول بجدارة إلى عوالم شعر الأطفال؛ ليقف شاعرها بجد بين الأسماء الواضحة والمنتجة لشعر الأطفال في العراق.

مراجع:

1 - الكعبي، فاضل (2018) الثقافة العلمية في أدب الأطفال - دراسات وأبحاث، دار أمل الجديدة للنشر، دمشق .

2 - العلاق، علي جعفر (2016) كلمات عن قصيدة الطفل، جريدة العرب اللندنية، 17 / أكتوبر، راجع: فاضل الكعبي، أدب الأطفال بين الظاهر والمسكوت عنه، دار بوابة الكتاب للنشر، أم القيوين، الإمارات.

3 - المرجع نفسه، ص 37.

4 - المرجع نفسه، ص 39.

5 - الحسيني، هادي (2008) حوار مع الشاعر نبيل ياسين، موقع النور الإلكتروني، في 3 / 3 / 2008.

6 - ياسين، نبيل (1980) الوردة قالت للقمر، دار ثقافة الأطفال، بغداد، العراق.

7 - المرجع نفسه، ص 8.

8 - يوسف، فاروق (1994) مئة قصيدة للأطفال، دار ثقافة الأطفال، بغداد، العراق، قصيدة علي جعفر العلاق (طار العصفور)، ص 62.

9 - المرجع نفسه، ص 65.

10 - الصكر، حاتم (1986) الذئب والحملان الثلاثة، دار ثقافة الأطفال، بغداد، العراق.

11 - الحطاب، جواد، قصيدته (نجمة) انظر: مئة قصيدة للأطفال مرجع سابق، ص 23.

12 - الكعبي، فاضل (2010) الكيان الثقافي للطفل، مؤسسة العروة الوثقى للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 200.

13 - سلوم، فاروق (1994) مقدمة ديوان (أشيائي الجميلة) للشاعر فاضل الكعبي، يُنظر: الكيان الثقافي للطفل، مؤسسة العروة الوثقى للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 211.